المحاضرة الثالثة : الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية واشكالية الهوية والانتماء

قبل طرح إشكالية جنسية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، و قبل الخوض في الموضوع، يجدر بنا الإشارة إلى الأسباب التي أدت إلى الإزدواجية اللغوية في الجزائر، و تمثلت في عدة عوامل من بينها التاريخية و الثقافية و الإجتماعية خلفتها بالدرجة الأولى المرحلة الإستدمارية التي حاولت طمس الشخصية الوطنية عن طريق محاربة اللغة العربية

كل هذه العوامل و غيرها أسهمت في خلق الإزدواجية اللغوية و تنميتها مما أوجد جيلا من الكتاب الجزائريين، يكتبون بلسان و قلم أجنبيين بالضرورة لعدم انتباههم لهذه الظاهرة بسبب سيادة اللغة الفرنسية، مما أدى بأحد الباحثين إلى القول : بأن "هؤلاء الكتاب في معظمهم معجبين كل الإعجاب بالحضارة الفرنسية، بوجه خاص، و الحضارة الغربية بوجه عام جاهلين بالتاريخ العربي غير ملمين بمعالم الحضارة الإسلامية،

إضافة إلى ذلك، فتأخر الثقافة العربية في الجزائر، أوجد تخلفا في اللغة العربية، مما أوجد فجوة كبيرة في الحصول على أسلوب لغوي روائي مرن – في الأدب الجزائري بعامة، و القصصي بخاصة– فكان من البديهي أن يلجأ الكتاب الجزائريون إلى استخدام الأداة الأجنبية لملء الفراغ، فساهموا بطريقة غير مباشرة في تطور الفن الروائي نسبيا.

غير أنه و في خضم تنامي الروح الوطنية، و تطورها تولد حقد ضد كل ما يمت إلى الإستعمار بصلة، فكان الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية في موقف الإتهام، فنظر إليه نظرة رفض و إنكار، و هذا على الرغم من تعبيره عن واقع وطني جزائري كما هو الحال بالنسبة لرواية "رصيف الأزهار لا يجيب " لمالك حداد، و "نوم العدل" لمولود معمري.

قد يقودنا هذا الإنكار و الرفض إلى سؤال سنحاول الإجابة عنه، و هو إلى أي حد يمكن للعامل اللغوي أن يتحكم في هوية النص الأدبي بعامة و الجزائري المكتوب بالفرنسية بخاصة وهل استطاع ان يحقق هويته من خلال التعبير الفرنسي؟

إن أول ما يثيره هذا التساؤل هو قضية الهوية الأدبية التي ظلت تتنازعها أقلام و تحركها مذاهب عرقية مختلفة لعدم احتواء المقياس القومي على منهج نموذجي في تحديد جنسية الآداب لم يكن ليفك الإشكالية المطروحة حول الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية.

وتأسيسا على ما سبق نجد بعضهم من يعترف بعروبة هذا الأدب و انتمائه الوطني الجزائري على الرغم مما يحمله من ثقافة غربية، و من تدوين لغوي أجنبي، و بعضهم من تبنى في تحديد هوية هذا الأدب، رأي الناقد الفرنسي كلود ماني في كون هذا الأدب يعيش عصر القصة الأمريكية باعتبار أن الظروف التي أفرزت أدبا قوميا في أمريكا – الذي كان محل إعتراف – هي الظروف نفسها التي يمر بها أدب شمال إفريقيا – المكتوب باللغة الفرنسية– كما أنه يحمل الشخصية و الروح الوطنيتين في دفاع هؤلاء الكتاب عن ماض و تقاليد جزائرية خاصة. و مما يزيد لهذا الرأي تأييدا، التصريح القائل بوجوب "الإعتراف بشخصية المغرب العربي، و لا شك أن الأدب الجديد في إفريقيا الشمالية يعطي سببا واضحا لهذا الإعتراف".

و على ضوء ما سبق، نجد عبد الله الركيبي يقف الموقف نفسه من هذا الأدب – المكتوب باللغة الفرنسية – مصرحا : " وجملة القول فإن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، قد أوجد لظروف و أسباب في مرحلة معينة، و هو إن كتب بلغة أجنبية، فإنه عبر عن مضمون جزائري و واقع وطني الأمر الذي يجعل منه أدبا محليا وطنيا

كما يدعو عبد المعطي حجازي إلى عدم إغفال الظاهرة اللغوية في تحقيق فعل الإنتماء القومي للأدب الجزائري – و ضرورة أخذ الوسيلة اللّغوية بعين الإعتبار في تحديد هوية النص الوطنية. "... أن الأدب لا ينسب للغة التي يكتب بها عندما تقول رواية مكتوبة بالفرنسية هي فرنسية يكتبها جزائري...

لعل ما يلاحظ على هذه الآراء. هو الاختلاف حول ظاهرة الهوية ومدى تحقيقها، وهل تكمن هوية النص المكتوب باللغة الأجنبية الفرنسية في الشكل أم في المضمون إم في كلاهما

إذ نجد أن الكاتب مالك حداد يقر بدور الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، في تصويره، و تجسيده للمجتمع الجزائري بوسيلة لغوية أجنبية، مما انتج خطابا هجينيا، و هذا حصيلة تفاعل الجسد اللغوي الأجنبي بالروح العربية الجزائرية، إلا أن طغيان الروح الوطنية، و طفوحها على القالب اللغوي الأجنبي أدى بالنقاد الفرنسيين إلى رفض الأدب الجزائري، و هذا تبعا لقول مالك حداد على نحو : " إن أكبر النقاد في فرنسا يرون أن أدبكم، هو أدب أجنبي يختلف اختلافا كثيرا عن الأدب الفرنسي... أو بالأحرى يستعملون الصيغة التالية : الأدب الفرنسي ذو التعبير الجزائري "

لقد انعكس ذلك الرفض الأخير من قبل النقاد الفرنسيين لذلك الأدب على نفسية الكاتب مالك حداد، و بالتالي الإحساس و التساؤل حول حقيقة هوية الأدب الجزائري على نحو إلى أي مدى يساهم العامل اللغوي في تحديد جنسية الأدب الجزائري ذي الحرف الأجنبي؟

لقد بين الكاتب الجزائري مالك حداد في اكثر من موقف حقيقة الإنتماء القومي للأدب الجزائري، و الذي لا يُرَدُّ حسب رأيه إلى عنصر اللغة فحسب، و لا إلى مجرد عاطفة نكنها و نقدس علاقتها بالموضوع، أو بالبلد، كافية لتحديد فعل الإنتماء. و هذا وفق تصريحه في كون " الجنسية الجزائرية ليست إقرارا قانونيا، كما لا توجد لها أي علاقة بالمشروع، و لكن بالتاريخ، أما عن الأدباء ذوي الأصل الأوروبي، و الذين آثروا الجنسية الجزائرية فالمستقبل هو المشترك الوحيد"

في حين و في النسق ذاته، نستشف أن الممارسة الإبداعية في نظر الكاتب رشيد بوجذرة لا تكاد تقف على لغة واحدة، بل نجده كثير التقلبات، بل كثير الإنتقال من لغة إلى أخرى، فهو في البدء كتب باللغة الفرنسية نذكر من بين رواياته "La répudiation" سنة 1969 و "L'escargot entété" .

إن النص الجزائري بعامة، سواء كان عربيا أم مكتوبا بالفرنسية نص يحمل في جوفه إشكالية الهوية، و هو إشكال لم يكن هينا منذ البداية، و منذ ولادة الأدب الجزائري نظرا لتعثر كل من عنصر القومية و اللغة و الشكل و المضمون بالإضافة إلى العامل الجغرافي، و عدة عوامل أخرى في تبيان نسبته. فإنه من المنطقي القول أن النص المكتوب بالفرنسية له الحق في التمتع بالهوية الوطنية الجزائرية كون يشكل الهاجس الأكبر في العيد من منتوجاته الابداعية